عودة الأسير

كنت على موعد مع الطبيعة ؛ فإنها تربطنى بها صلات ووشائج ، وبيننا ألفة ومودة . وحين تضطرب الأمور وتلتوى أو يضيق الصدر منى ، ألجأ إليها كالمثقل بالخطايا حين يفزع إلى معبده وقد بهظه حملها . وهناك أبثها شجونى وأحكى لها آلامى ، فتخفف عنى وتهدئ من رَوْعى وترد إلىّ ثقتى . والطبيعة تهب سرها لمن يحبها ، فتكشف له عما يستغلق على غيره من معان خفية تكمن خلف مظهرها ، وتفسر له مايدق ، وتوضح مايستبهم .

وذهبت فى ذلك اليوم الى حيث ألقاها وأنفرد بها ، واستلقيت على ظهرى أتأمل السماء وكانت غائمة ، وأنا أحب السماء الغائمة ، فكأنى إذ أشهدها أقرأ فى سفر الحياة وأستطلع أسرار الكون ، وأتزود بالحكمة والمعرفة . وكانت الغيوم تتباعد وتتدانى ، وتتجمع وتتفرق ، وتقبل وتدبر ، وتسرع وتبطئ ، وتكبر وتصغر ؛ وهى فى كل ذلك منسجمة متسقة مؤتلفة ، وكأنها تعرض أشتاتاً من الصور وألواناً من القصص . وكانت تصاحبها موسيقا الطبيعة ذات المعانى العميقة والرموز الغامضة ، صاخبة متفجرة تارة ، وهادئة وادعة أخرى ، فتضفى عليها حلة من الرهبة والخيال ، وتسمها بطابع الشعر والفلسفة .

ورأيت فيما رأيت « مارس » العنيد وهو عائد من رحلته الدموية فى مركبته الرهيبة وسط الحرائق والأنقاض والأشلاء . وساد السكون فترة ثم خرجت الملائكة تنفخ فى الصور ، مبشرة بالأمان ، ناشرة ألوية السلام

ورأيت أبواب السجون وهى تنفرج فى بطء وتثاقل ، وجموع الأسرى وهى تنطلق من بينها ، بوجوه مكفهرة عليها غبرة ، ورءوس حاسرة وثياب خلقة ، وكانوا يسيرون بخطوات وئيدة ، كأن أقدامهم تنوء بهم ، وكانت أبصارهم شاردة وتقاطيعهم جامدة لا تنم على شئ

إن ضوء الحرية ليبهر بعد ظلمة الأسر . وإن الرئتين لتعجزان عن الامتلاء بالهواء الذى كانتا محرومتين منه . وكأنما ثابوا الى أنفسهم بعد حين ، وأدركوا أن كل شئ قد تغير : منظر الشمس والضوء والوجوه ، وكذلك مظهر الأشياء والأشخاص والحيوان ، والأصوات والألوان . . . فكل شئ زاد . وكل شئ رق .

وبدءوا يشعرون بالدعة والراحة وقد توسدوهما فجأة ، وأخذت الأجساد تعيش والأرواح تتنبه . وهم يستطيعون الآن وبدون أن يخشوا شيئاً ، أن يرفعوا أصواتهم وأن يبتسموا ، وأن يشاهدوا وأن يستمعوا ، وأن يفكروا كما يروق لهم ، وأن يكتبوا مايسنح فى خاطرهم ، وأن يتلقوا الرسائل ولا يشاركهم أحد فى قراءتها . وها هم أولاء يتنفسون ، وها هى ذى قلوبهم تنبض ، وها هى ذى أرواحهم التى أعتقت تستطيع أن تنطلق فى الأفق الواسع حيث تحلق وترفرف .

ورأيت كلا منهم يتجه إلى أهله وذويه بجسده وقلبه وروحه ، وهؤلاء يستقبلونه بأجسادهم وقلوبهم وأرواحهم . وقد كانوا منذ أشهر قانطين من أوبته لا يستقرون من القلق عليه ، تنتابهم الهواجس وتشجيهم الأحزان . هم أيضاً كانوا سجناء ، وكان سجنهم تلك الفكرة الواحدة الثابتة ، تلح عليهم وتأخذ بخناقهم . وها هم أولاء قد أرخى خناقهم ، وفُكّ أسرهم معه . هم أيضاً تغير الحاضر حيالهم ، وأضاء المستقبل أمامهم ، واستعادوا ثقتهم ، وصار كل شئ يبدو جميلا أمام أعينهم . فهذا التحرير بدء لسيرة جديدة ، وهو إذ ينبئ بانتهاء الساعات المريرة يكاد يمسح ذكرى الآلام الماضية .

وطفقت أتأمل وجوه العائدين من هناك وقد اقتربوا من أرض الوطن . وخيل الىّ أنهم يتهيبون هذا اللقاء ويشفقون منه بقدر ما كانوا يرغبون فيه ويتلهفون عليه . لقد كان يدور فى قلوبهم التى طالما هفت الى هذه اللحظة ، صراع مرير أشد هولاً من كل المعارك التى خاضوا غمارها . وكانت عيونهم تنطق بهذا الاضطراب الذى كان يعصف بهم ، ويملأ بالرهبة جوانحهم . . . كيف يجد بعضهم بعضا ؟ هل القلوب تغيرت ؟ والأجساد ، الأجساد التى قاست

وتعذبت . . . والوجوه ، الوجوه العزيزة الطيبة ، التى كانت لكل منهم الأفق والسماء والوطن . . . ماذا أصابها ؟ ماذا فعلت الحرب بها ؟ ترى هل أضحت كالأرض التى يطونها ، أو الأقطار التى يجاوزونها ، وهى قد دكت آثارها ، وذهبت بمعالمها .

وسمعت أحدهم يسائل : « ألا زالت أعين طفلى جميلة كما كانت ؟ وابتسامة امرأتى . . . »

وكان للأسرة صديق أريب رأيته يسارع مستبقا هذا اللقاء الرهيب ويقول للعائد المسكين : «خذ حِذْرَك ، فستجد أمك وقد تغيرت قليلا. لقد ضعف منها البصر . واضبط نفسك فان أباك لا يقدر على الحراك وقد بانت عليه نهكة المرض.»

ورأيته يعود سريعا أيضاً وينذر الأسرة الشقية : «ستجدونه وقد تغير قليلا . لقد وخطه الشيب . وإياكم وإظهار جزعكم ، فقد ترون له ساقاً من خشب بدلا من التى فقدها . ولكن هذا أمر هين ، فستصنع له أخرى ، ويثوب إلى حالته الأولى . ثم لا تنسوا اضطراب النفس ووعثاء السفر . »

وأخيراً حلت اللحظة القاسية ، ورأيت الزوجة تشخص ببصرها وتسائل فى ارتياب : أين هو ؟ ولم يطل هذا الارتياب لحظة ، ولكن من يدرى كم سيبقى أثره ، وكم سيدوم عنفه ؟

ولقد جرف الفرح باللقاء كل شئ أمامه كالعاصفة ، فتبددت الحيرة أمام نشوة الحوزة ، وانقشع الذهول وتلاشى الذعر أمام الشعور بالحياة والتحقق من استمرارها . ورأيت كلا منهم يحتال ليظهر بمظهر المبتهج ، ويتصنع الاغتباط ، ويحمل نفسه على الضحك . وكانوا يتبارون جميعاً فى النوادر والفكاهات والملح . ورأيت الرجل يرفع عكازه فى الهواء ويرقص به على قدمه الواحدة لكى يطرب منه الآخرون .

لشدَّ ما كذبوا جميعاً . . . ولكن ما كان أروعه من كذب !

والتفت الزوج إلى زوجته وقال : « هه ! لقد عدت حطاما ! هذا كل مابقى منى ! » . فقالت له : « صه ! إنك لازلت كما كنت » . والتفت الأب إلى ولده العائد من الأسر وقال : « ونحن يا ولدى ، لقد انتهينا . . . » فقال الابن : « حاشا . . . ما كنت أتوقع أن أراك بهذه الصحة والعافية » .

يا للأكذوبة السامية ! ويا للمهزلة الفائقة !

ورأيت مثل هذه الأكاذيب وهذه المهازل تؤدّى فى كل الأسر التى عاد أبناؤها ، على هذا النحو من البسالة والنبالة والسمو والكرم . ولقد عرف بعضهم بعضاً فى لمح البصر ، ولكن هذه اللحظة التى كانوا يصبون إليها جميعاً ، كانت تختزن لهم الآلام والهموم . كانت تبدو على جميع الوجوه — المقيم منهم والعائد — آثار العذاب وسمات الشقاء وشواهد الهم وعلامات الهرم ؛ لأن الجميع حتى الذين لم يبرحوا مكانهم ، حاربوا حربهم وعانوا مرارة الذل والأسر . ولم يقر أحد منهم بشئ فى مبدأ الأمر ، بل كانوا يكبتون آهاتهم ، ويحجزون أناتهم ، ويخفون لوعتهم بالعناق ، ويختنقون غُصَصَهم تحت سيل من القُبَل .

بيد أن ذلك لم يدم طويلا ؛ إذ لم يكن هناك مناص من الاعتراف بما أحكم إخفاؤه من الأسقام والعلل ، والبوح بما كان يدارى بالصمت والكتمان : بالعمى والصمم والجراح التى شوّهت والأعضاء التى بُترت ، وكل ما كانوا لا يجرءون على الكشف عنه أو الاعتراف به . وهو الآن لا يمكن أن يبقى مستوراً أو خافياً ، فالحقيقة تأتى ، وها هى ذى تقترب وتلح وتصرخ ثم تنفجر . رباه أى محنة كانت ! وأى شقاء !

نعم لم يكشف القناع عن وجه الحقيقة سريعاً ، ولكنها حين غدت سافرة بدت بشعة . وعندئذ أخذ سيل الحكايات يفيض ، والاعترافات تتدفق ، والدموع تنهمر ، والزفرات تتصاعد . وعندئذ فقط بدت آثار الضيق الجسمانى وأمارات الانكماش الذاتى والانقباض المعنوى . تلك الآثار والأمارات التى لم تُرَ فى مبدأ الأمر أو لم يبغ أحد رؤيتها . بدا التغير فى المظهر والتقاطيع : فى الجباه التى تغضّنت وتقبضت ، والخدود التى غارت وشحبت ، والعيون التى خمد نورها وذهب بريقها ، والصوت الذى تبلدت نغمته وانثلمت رنته ، والشعر الذى اغبر واصفر ، والجلد الذى قَحَل وذبُل . . . ظهر التبدل فى الحركة والنظرة : فى ذلك التراخى والفتور اللذين يستوليان على الشخص بأكمله ، وذلك الذهول العجيب المشابه للتأمل الدائم عند من أصابتهم الحرب برضتها ، وتلك النظرة الغريبة الخاوية التى تنبئ بانقشاع الأوهام لدى العائدين منها . وكُشف عن الجروح المخفاة تحت الأغطية ، والندوب المستورة تحت الأردية . وأظهرت البسمات مكان الأسنان التى سقطت ، وبان الهزال وزاد تحت الملابس التى اتسعت .

ورأيت الزوجة تحدق فى الزوج وتقول : « يا إلهى ! أى آخر أعدته إلىّ ! » وأخذ الزوج يقابل بين الصورة الجميلة التى رحل بها ولم تبرح مخيلته ، وبين الصورة الماثلة أمام عينه وقد زايلتها ميعتها ، وأثر فيها الجوع والخوف والحرمان والسقم .

ولقد اشتد الحنان لهم والشفقة بهم ، وزاد الإحساس بالإكبار وبالاحترام تجاههم . ولكننى رأيت فيهم من وجد أن القلوب تحولت ، وأن الحياة تبدلت ، وأن صروفها عصفت بكل ما كان يعتز به ويغار عليه . فأسف لعودته ، وتمنى لو أنه كان لقى حتفه كخلانه فى ساحة الشرف . ولكن واسفاه ، حتى الموت لم يظفر به كل من يطلبه !

ورأيت فيهم من لا يجد له عزاء عن تركه السلاح ؛ فقد راض نفسه على الكفاح ، وصارت الحياة عنده تبدو بدونه تافهة . وفيهم من بدأ ينسج خيوط حياة جديدة أجمل وأفضل ؛ والإنسان لا يبدأ التفكير فى حياة جديدة إلا من فوق الخرائب والأنقاض . وفيهم من وجد أن أحب الناس إلى قلبه وأقربهم إلى نفسه ، قد أودى بهم فعل الإنسان بأخيه الإنسان ، فأخذت مراجل العداوة تغلى فى صدره من جديد ، وامتلأت نفسه بالسخائم والأحقاد ، وتملكته الرغبة فى الأخذ بالثأر . وفيهم من استسلم للقضاء وتذرع بالصبر وخضع . وفيهم من تمرد على كل القيم السموية العزيزة على الإنسانية ، كحب الوطن ، والدفاع عن المثل العليا ، والتضحية . وفيهم من دب إليه دبيب الشك فى الحضارة القائمة وفى عظمة الفكر الإنسانى الذى لم يبدع شيئاً إلا كان له شأن فى كل ما نزل به . وفيهم من استبد به اليأس ، فهو لم يعد — واحسرتاه — يصلح لأمر . . .

وولّى النهار ، واختلطت الظلمة بالنور ، وتعاقبت أمام ناظرى هذه الصور الكئيبة والبقايا المحطمة ، كأنها أرواح معذبة ، أو خيالات حائرة ، تومض فى لوحات معتمة ثم تنسل وتختفى . وأسبل الليل ستره على الكون ، ولم أعد أرى شيئاً . وخفتت الأصوات ، وهجعت الأطيار ، وهدأت الأشباح ، وهمدت الأشياء . ولم يكن يُسمع غير رذاذ لا يرى ، كان يتساقط على أوراق الخريف الميتة وكأنه يهمس إليها ، وكان كل شئ يبدو كأنه ينصت .

هل كان ذلك وحى قصة ؟ هل كان حلما ؟ هل كانت تخيلات وتصورات ؟ أم كان ذلك صدى لإحدى مقطوعات موزارت أو أثر لوحة من لوحات رافائيل . . . ؟ لست أدرى ! ولكنى شهدت وسمعت . وقمت أتعثر فى خطاى ، شارد اللب ، ذاهل البصر . وطرقت مسمعى زقزقة عصفور صغير ضعيف كصوت الحق ، كان يرتعد مبتلا على فنن ، وكأنه هاتف يهتف : « ليت من يدفعون بهذه المخلوقات التعسة إلى كل هذا الهوان ، يدركون أن الإنسان لا تشفى آلامه ، ولا تؤسى جراحه ، عند ما ينقشع دخان البارود أو تتعالى أهازيج النصر . »

عبد القادر السماحى